

سليم مطر

إمرأة القارورة

بين العراق وسويسرا، المغامرات العجيبة لإمرأة خالدة
منذ خمسة آلاف عام...

* * *

هذا نص ما كتبه النقاد على الغلاف الخلفى للطبعة الاولى

- جورج طرابيشي: على الرغم انها قد لا تكون "رواية" بالمعنى المتعارف عليه. فهي احق بالوصف بأنها "فنتازيا روائية" اقرب الى ان تكون إعادة كتابة لسفر التكوين، بطلها الانسان، وراويها (في بعض تجلياته) هو الله، ومسرحها الكون وقارات الارض، وديكورها ميثولوجيات التاريخ ووقائعه المعاصرة معاً، ولغتها بلورية مصفاة.

- زكريا تامر: رواية مرتبطة اوثق ارتباطاً بأساطير المنطقة العربية وتراثها الشعبي ومعتقداتها. غير ان ذلك الارتباط ليس تويلاً جديداً لها بل هو ينطلق منها كي يقول قوله الخاص النابع من الاعماق الانسانية التي يمتزج فيها الليل والنهار. وتفصح الرواية عن قدرة باهرة على التخيل القادر على ان يتحول الى واقع شديد الصلابة.

- يوسف الشاروني: تتميز بفنتازيتها واسطوريتها إذ تدوب فيها الفواصل بين عوالم الواقع والحلم والكابوس، الماضي والحاضر، الوسيلة والمنطق والجنون..

فصل إبتدائي

في البدء كانت القارورة

قبل الولوج في عوالم هذه الحكاية مع (امرأة القارورة) العجيبة، يهمني أن أعلمكم منذ الآن أنني لست مسؤولاً عنها ولم أشارك في أي من أحداثها وخيالي بريء منها. في الحقيقة إنني أجبرت على نشرها من باب الواجب لا أكثر. منذ أن عثرت على هذه الحكاية بطريق المصادفة، قبل أسابيع، وأنا متردد في إحراقها أو رميها في البحيرة. وقد فشلت جميع جهودي لاكتشاف شخصية كاتبها الحقيقي. إنني أنشرها ولم أحاول أن أغير في سطورها أية كلمة، تركت المخطوطة كما سلمتني إياها سيدة الحانة.

لعله من الضروري أن أحيي لكم باختصار عن ظروف حصولي على هذه المخطوطة، لكي تحكموا بأنفسكم على طبيعة علاقتي بها. وربما تساهمون معي في معرفة شخوصها وحقيقة أحداثها. تم الأمر عندما وصلت منذ أسابيع إلى مدينة (جنيف). أقول (وصلت)، إنما في الواقع، وجدت نفسي فيها. بعد تيه عظيم خلال أعوام في سوح الحروب وفقدان في عوالم الانفاق، خرجت من أعماق الأرض لأجد نفسي في فجر يوم بارد من شباط 1988 ، بين صخور شواطئ بحيرة (جنيف). خرجت مبلاً أبحت عن دفاء، فقادتني أقدامي، انا المبهوت، في شوارع المدينة حتى دخلت إلى حانة مظلة على نهر (الرون). هناك قدمت إلي صاحبة الحانة كأس نبيذ أحمر وهذه المخطوطة.

لم أجد حتى الآن أي تفسير لكيفية حدوث هذه المعجزة. فجأة وجدت نفسي أنتقل من جبهة الحرب بين الأهوار والصحارى إلى مدينة لم أعرفها إلا من خلال السمع والقراءة. فأنا ببساطة، كنت امضي عامي السابع في الحرب. منذ الشهر الأول على اندلاعها عام 1981، مسكوني في الشارع وحشروني في بدلة عسكرية، ودرّبوا يدي على استخدام السلاح، ثم وضعوني في شاحنة مع رجال من أشباهي. رمونا بين الأهوار وقالوا لنا:

- "هذه ارض الأسلاف احفروا فيها مواقعكم، وإن تراجعتم عنها فإننا سنرجعكم إليها مرة ثانية، ولكن على هيئة جثث لندفنكم فيها".

طيلة سبعة أعوام لم أكن أدرك من الوجود غير أهوال الحرب وذلك الشوق الدفين للهروب نحو حلم تملكني منذ صباي: (أوروبا)! ما مضى يوم إلا وكنت أرسم من عذابات ورعب الحرب لوحة لأوروبا، كاله تعس يصنع من أطيان كوارثه مخلوقاً سامياً قادراً على منح اللذة لخالقه. من شبقي المكبوت نحت جسد أوروبا، ومن تجارب حُبي الفاشلة صنعت قلبها، ومن حاجتي إلى الراحة والأمان رسمت ملامحها الخضراء، ومن توقي إلى العدالة والانعقاد خيطت لها ثوباً أبيض فضفاضاً يرفرف كأجنحة فراشة ويضميني بين ثناياه كما تضميني أم في

عباءتها السوداء. أوروبا صارت مخلصي المنتظر وأرضي الموعودة. حتى عذاباتها كنت أراها تختلف عن عذابات الشرق. جوعها وتشردها وعنصريتها وبؤسها، كان أكثر استساغة من أمثالها في بلادِي.

* * *

خلال سبعة أعوام الحرب قمت بسبع محاولات هرب، انتهت ست منها بالفشل. أما السابعة فنقلتني إلى (جنيف)، لأنها لم تكن بالضبط محاولة هرب قدما كانت تيهاً في أنفاق المجهول. وإذا كان الحظ قد حالفني في شيء، فذلك بأني خلال سبعة أعوام، تمكنت بأعجوبة من أن أنجو من حكم إعدام نفذ بحق الآلاف من الفارين مثلي. أعدموا وعلقت جثثهم أمام منازلهم ليكونوا عبرة للآخرين، بل إن عوائلهم قد أجبرت على دفع ثمن طلاقات قد أعدم بها أبناؤها.

يمكنكم أن تقولوا عني إنني لم أكن شجاعاً في الدفاع عن بلادِي، ولكن إذا كانت الشجاعة في عرفكم تعني التضحية بالنفس، فإني على العكس منكم تماماً، إذ تقاس شجاعتي بمدى تمكني من حفاظي على نفسي. ثم خبروني بالله عليكم، هل من الضروري أن تنسحق روعي وتتقطع أوصالي، لكي يجلس القادة المحترمون في النهاية إلى طاولة المفاوضات لتقاسم بضعة كيلومترات عند حدود ملطخة بدماء ملايين بانسة، ثم هل تضمنون لي أن هؤلاء القادة، بعد الانتهاء من مفاوضات الحدود، سيتفاوضون مع الرب لارجاع حياتي التي نهشتها دباباتهم وبعثرتها قنابلهم؟

أشد ما كان يقززني ويدفعني إلى التمرد والهرب، صورة شاذة كانت ترسم في مخيلتي في أثناء تفاقم المحنة:

" إن قادة الدولتين يتناكحون فيما بينهم ونحن جحافل الجيوش عبارة عن حيامن معتقة يقذفونها في بعضهم البعض. ننسكب نحن شهداء ملذاتهم وهم يرتعشون شبقاً في خطبهم وشتانهم وتهديداتهم لبعضهم البعض. بعد أن يتعبوا وينتهوا، ينبطحون على ظهورهم في سرير المفاوضات ويمسحون جبهاتهم ومؤخراتهم من جثثنا، ثم يتعانقون بحب!"

"شجاع إذا ما امكنتني فرصة فإن لم تكن لي فرصة فجان .."

كنت أردد قول (معاوية بن أبي سفيان) هذا خلال جميع أعوام حربي السبعة وجميع محاولات فراري التي بدأت من المصادفة ونمت إلى الضرورة لتنتهي بمعجزة لا واقعية تخطت قوانين الزمان والمكان. فجأة انتقلت من متاهات أنفاق التاريخ، مثخنا بجراح الآلاف من أسلافي وبناء جلدتي، لكي أخرج إلى نور الحاضر وهو يغمر مدينة لا أعرف منها غير اسمها وهذه الحكاية العجيبة التي سأعرضها لكم في فصول قادمة.

قبل معجزة انتقاله إلى (جنيف) كنت امضي سنتي السابعة في جبهة الأهوار. بعد فشل محاولة فراري السادسة، رموني هنا وقالوا لي :

- "انت هنا لن تحارب، إنما عليك ان تشبع بطون المحاربين. رصاصات البندقية لن تنفع دون رصاص الطعام الذي ستحشوه به بطونهم".

كنت لا اريد من حياتي غير السكينة والنوم. وبينما خطوات العسكر تضرب في رأسي، كنت اتوهم اني لن أستيقظ إلا بعد أن يكون العالم قد غط في نومه الأبدي.

كان مطبخنا قاعة كبيرة في أعماق الأرض. جدارها الصخري مليئاً بنقوش أثرية لملوك قدماء وهم يصيدون ويقتلون ويتسلمون شرائع ويخوضون حروباً ويتنازلون. بجانب حوض غسل الصحون اتكأ على الجدار نصب امرأة بالحجم الطبيعي. كانت واقفة بشموخ وهي تمد اليد اليمنى بقارورة صغيرة بحجم كأس، وقد التفت على ذراعها اليسرى أفعى، محشور رأسها بين نهديهما. سمعت الجنود يقولون إنها قاعة ملوك قدماء عثروا عليها في اثناء حفر الخنادق.

وكرر أحدهم حكاية (ملاً يوسف) عريف المطبخ، عندما تلمس لحيته المصبوغة بالحناء، وتعود من الشيطان، وكشف لهم سر هذه القاعة، محاولاً أن يضيف على لهجته الجنوبية بلاغة اللغة الفصحى. قال:

- " إنهم ملوك شعب من الزناة، لم يفرقوا بين عشيقة وأخت وأم، فطشهم الله على الحجر، وها هي آثارهم عبرة لمن يراهم. أما هذه التي ترونها أمامكم فهي ملكتهم وأمهم وعشيقتهم جميعاً. منها تعلم البشر الفسق، وقد صنعها الشيطان من لحم الأفعى التي تنكربها لإغواء آدم وحواء، لتكون أول غاوية في التاريخ. نجحت في إغواء حتى الأنبياء والحكماء، منذ قابيل وهاييل وإبراهيم وسليمان ولوط ويوسف، ولم يقف بوجهها إلا (الإمام علي) الذي عندما عرضت عليه جمالها غضب وضربها بسيفه (ذو الفقار) هنا قبل أن تهرب".

صمت (ملاً يوسف) مرتعباً وهو يشير إلى أثر الجرح الذي تركه السيف على امتداد بطنها كفطر طويل غير مرئي يشبه الجرح، امتد من العنق حتى اسفل البطن. ثم بعد أن استغفر وتعود وبسمل استطرد بحكايته عن كيف أنزل الله عليها عقابه ومسحها مع عشاقها وأسلافها إلى حجر، إذ ضجت الأرض والسموات بأدعية المؤمنين وشكاواهم ليخلصهم الله من فسقها. أغمض (ملاً يوسف) عينيه، وفرك مسبحة السوداء، واتخذ وجهه المحروق بالشمس والحرب هيئة بلوطة ناضجة، وكشف السر الأكبر:

- "رغم تحولها إلى حجر فأنها ما زالت قادرة على التأثير على القلوب والاستجابة لنذور العشاق وأتباع الغواية".

صحيح أن الكثير من الجنود قد سخروا من حكايته باعتبارها محض خرافات، وادعوا أن هذه القاعة ما هي إلا آثار من بقايا ملوك سومر واكد. لكن الزمن كان يبدو لصالح تصريحات (ملاً يوسف)، إذ مع مرور أعوام الحرب وما تخلفه في قلوب المحاربين وابدانهم من جروح وعاهات وكوابيس ونكبات، شاع بينهم ما يشبه طقوس التقديس لتمثال هذه المرأة التي راحوا ينادونها بـ(سيدة القارورة)! لم يقتصر الأمر على مصدقي الخرافات والمتدينين وحدهم، بل حتى المعتنقين لمبادئ علم وحدانية. جميعهم ساهموا دون قصد أو بقصد في خلق نوع خفي من الطقوس الصامتة والسرية أحياناً من دون أن يدركوا بالضبط من هو المسؤول!

هكذا كأنهم ورثوا هذه الطقوس عن أسلافهم، فترى التمثال قد استحال مع الزمن إلى لوحة خط عليها الجنود كلمات عشقهم وشتانمهم وحكمهم ورسومهم الفاحشة. الفنانون منهم، فطريون وأكاديميون، كانوا يلطخونها بألوان إبداعاتهم المتنوعة، وقد رسموا لها ثوباً شفافاً تبرز منه جميع تفاصيل جسدها حتى المخفي منها عادة في عريها. يوماً تراها شقراء كممثلة خليعة بعيون زرق أو خضر حسب زاوية النظر، بعدها بأيام ينهض احدهم وهو ثمل ويحيلها إلى سمراء بعيون داجية وشفاه راقصة عجزية.

في شهر رمضان وأيام عاشوراء وعيد نيروز يعمد الجنود إلى إضفاء الوقار عليها وغسل المكياج عنها وإلقاء نوع من الحجاب الأسود الشفاف عليها، فتبدو كأتم حزينة. وفي أعياد الفصح ورأس السنة، يعمد الجنود المسيحيون إلى إضفاء بعض الألوان الخفيفة وإشعال الشموع في قاروتها وفي فم أفعالها وعلى نهديها ثم تنثر عليها أغصان الآس والزيتون لتصبح أشبه بعذراء سريانية. خلال سبعة أعوام قد زين الجنود عنقها ورأسها وذراعها، بل حتى كاحليها، بأنواع من مزق قماش أخضر وخلي رخيصة، بعضها صنعه بأنفسهم من أسلاك دبابة إيرانية محطمة.

* * *

لقد شاء القدر أن تكون لي هذه المرأة ملجأً وحيداً، استمد من وجودها بقربي ذلك الدفء اللذيذ الذي ما عرفته إلا أنني أدركت وجوده الغامض. فرشت بطانيتي قربها على الأرض، وجعلت وسادتي بين قدميها، وأمضيت جميع ليالي سنتي السابعة وأنا أرقب هيبته وأتنتصت إلى دقائق قلبها حتى أغفو. في بعض الليالي عندما تشتد وحدتي بين رعب القتلى والجرحى والمنتحرين، كنت أغافل الجنود وهم نيام لكي أحتضن معبودتي وأهمس لها بعذاباتي وبأسرار محاولات هربي الست التي لو علم بها قادتي لاستحق علي حكم الاعدام ست مرات متتالية. وكانت هي تواسيني خفية بعينيها وتهمس لي بكلماتها.

إني على يقين من أني وحدي بين الجنود وافقت المرأة على ان تكشف لي أسرارها. قالت إن حكاية (ملا يوسف) هي شذرات من حقيقة، أما جوهر الحقيقة الذي لم يكتشفه أحد غيري فهو أن التي مسخها الرب إلى تمثال هي شذرة من وجود أعظم.. شذرة من روح أنثى شاملة تمكث حية في شهوات الرجال.
أخبرتني بسر لم يكتشفه قبلي إلا القلائل :

" إني اعيش عالم حلم في رأسها. الوجود بأجمعه ما هو إلا خيال في رأس هذه المرأة التي تعيش في عالم آخر هو أيضاً خيال لكنه في رأس كائن أعظم. كل هذا التاريخ من آلاف وآلاف الأعوام والأقوام والأوطان ما هو إلا دقائق من الحلم في رأس امرأة تمارس رعشتها الأولى في احضان عشيقها. هما يعيشان في عالم آخر من حلم يدور في رأس الكائن الأعظم. إننا حلم رعشة، بعنفها وهمجيتها والمها وبهجتها وتردها بين تلاحم وتناء. شعوب تولد وتفنئ.. حروب تخاض وحضارات تقام وبشر يمارسون لذة وتناسل، وارتعاشة هذه المرأة ما زالت تمنح الحياة لحلم وجودنا. في دمها وتلافيف رأسها يعيش جميع أسلافنا، رحلوا إلى الأعماق لينقلوا إشارات لذتها في أنحاء جسدها. خالدون في أعماقها بين عوالم بدنها الشاسع، يمضون خلودهم في رعشة أبدية وتناسل سرمدى وتناسخ في أبدان الأحفاد".

يا ترى، كم من لحظات رعشة قد استغرقتها سنوات حربي ومحاولات فراري الست؟ لا أتذكر من حياتي غير الحرب، وقد تحددت مراحل عمري بمحاولات فراري. لم تجبني المرأة عن سؤالي إن كان لي ماضٍ آخر؟ جلبوني هنا دون أن يعرفوا عني حتى اسمي. اندمجت في تقمصى لدور الرجل المعتوه، مسخرة الجنود، الأخرس، المجهول الهوية والأصل.

* * *

لا أتذكر من حياتي السابقة غير سبعة أعوام حرب امضيتها طريداً بين خنادق موت وأهوار وصحارى وجبال. أتذكر انه بعد بضعة اشهر من اندلاع الحرب، كنا في طريق البصرة الصحراوي عندما هاجمت الطائرات شاحنتنا وفجرتها مع جميع الجنود الذين تخلفوا فيها ولم يتح لهم الهروب معنا. انتثرنا كوحوش كسرت أقفاصها، بين رمال وصخور ومرتفعات، بعيداً عن أعين طيار أحرق تخلف عن جماعته، وظل يلاحقنا برشاشه بإصرار عجيب كأنه يعرفنا شخصياً.

شاعت المصادفة أن تمر من هناك قافلة من البدو قادمة من الحدود الجنوبية في طريقها إلى الحدود الغربية. التجأت إليهم عندما وجدوني هائماً في الليل وقد عزمتم أن أظل أجول في الصحراء حتى الموت ولا أعود إلى الجبهة. استغثت بشيخهم :

"أنا دخليكم.. خلصوني الله يخلصكم.."

الآن، وأنا في (جنيف)، يمكنني أن أجزم بيقين أن شيخ القافلة ذاك، رغم بساطة مظهره، كان ذا هيبة ملوك ووقار أنبياء. تلوح في ذاكرتي الآن صورة مشوشة لذلك الشيخ الذي تناديه عشيرته (أبو يحيى). كان كمرآة احتفظت بآثار أماكن وعصور وأقوام انعكست فيها صورهم. إنه ساحر خرافي وحكيم متفقه وبدوي متمرس. عندما أصغى إلى حكايتي هز رأسه محققاً في خطوط رمال رسمتها أصابعي. قال لي أشياء كثيرة لم أصدقها إلا بعد أن عشت أحداثها. أخبرني بجميع ما سيحصل لي في سنواتي السبع القادمة : محاولات فراري وانتقالي، بل إنه كشف لي شيئاً أعظم من هذا: حكاية (امرأة القارورة) التي سأتعرف عليها بعد سبعة أعوام في جنيف.

لم أصدق.. نخوته أن يوصلني إلى الحدود. سأحاول عبور الفرات والتسلل إلى سوريا ثم إلى لبنان لتدبر جواز للسفر إلى أوروبا. قال إنه من أجل خاطري سيحاول. لكنه بعد ثلاثة أسابيع، كما تنبأ، اضطر إلى تسليمي إلى فرقة عسكرية أوقفنا في الطريق. اكتشف ضابط الفرقة ذو الشارب الأحمر والعينين الزرقاوين اني غريب بين العشيرة. في البدء رفض الشيخ أن يسلمني إليه. وكادت بسببي ان تتشب الحرب بين الطرفين، لولا أن اكتشف الضابط أخيراً أن هؤلاء البدو هم فرع من عشيرة أخواله.

رأيت الضابط يختلي بشيخ العشيرة خلف بقايا معبد مهجور، ليقرر مصيري. عندما عاد، اقتعني الشيخ أن أسلم نفسي إلى العسكر بعد أن تعهد الضابط بشرفه ان يضمن حياتي وينجيني من حكم الإعدام بتسليمي إلى السلطة على أنني كنت تانهاً في الصحراء ولست فاراً.

* * *

بعد أقل من عام قمت بمحاولة فراري الثانية. ذات يوم خريفي أخرجت رأسي من الخندق، فرأيت شمساً غاربة تفرش على الأهوار حلّة ذهبية وتنشر في الفضاء رائحة عفن. إزاء ذلك الصمت الموحش أحسست بصخب في أعماقي بين حشود بشر تتجادل وتسخر من بعضها البعض. قلت لأهرب عسى أن تسكت، فزحفت على بطني وتوغلت في أحراش البردي. كانت الخنازير الوحشية وأفاعي الماء والطيور والجواميس لا تزال تعيش صدمة استقبالها لنا، نحن أحفاد سادتها قد عدنا بحيوانات حديدية ووسائل دمار حديثة، حفرنا خنادقنا ورحنا نعبث بلعبة جهنمية. حتى هذه الحيوانات الوحشية قد صُدمت مشاعرها وفقدت شجاعتها وراحت تهرب من أية حركة حتى لو كانت صادرة عن حيوان آخر.

قلت أهرب وألتجئ إلى العشائر النائية عسى أن أجد فرصة للتسلل إلى الخارج، لكن جنود الجيران انبتقوا فجأة من الأحراش مثلما يحدث في سينما المغامرات. كانوا يصرخون : "اللهو أكبرو"، وارتموا فوقي.

رغم استسلامي، شاء أحدهم لكي يضمن خضوعي تماماً، أن يطعنني بالحربة في كتفي، وجروني ورائهم مقيداً ككلب.

الآن وبعد أعوام على هذا الحادث، إذ طالعت حكاية (امرأة القارورة)، يمكنني القول إنني في يوم هربي ذاك قد عشت جواً غرائبياً شبيهاً بأجواء هذه الحكاية. بينما كانوا يقودونني بين الأهوار إلى موقعهم، كان المساء قد حل وجراح كتفي ما زالت تنزف. حشود روحي راحت تصحو من غيبوبتها وتمطى وتطرح علي أسئلتها التي استفحلت بسرعة إلى شكوك وعتاب وشتائم ودق على جدار صدري. شرعت بذرة من الكآبة تكبر وتتكور وتستحيل إلى لهيب يحرق أحشائي ويمتد إلى رأسي وأطرافي.

فجأة، دون أن أدرك كيف، هزت الكون صرخة ما سمعت مثلها قبلاً، ومادت الأرض من تحتي وقدح ضوء كبرق ثم لا أدري بعدها ماذا حدث.. كأنني تفتت وتبعثرت في الوجود؟! بعد تيه في عوالم من نور وألوان وأشباح، كانت تتوضح على هيئة جنان خضراء فيها منازل بيضاء كالثلج تنتثر بين حدائق وأعشاب وغدائر تصب في بحيرات تطفو على سطحها مواكب عشاق وحوريات كقديسات وملانكة كأطفال. وأنا كائن بدائي مثخن بجراح وعار هزيمة، أزحف على الشاطيء أريد أن ألحق الأصحاب في مواكبهم، لكنني كنت أغرق في دوامة ماء.. أغوص وأغوص... لحظة لفظت رمقي الأخير، فتحت عيني!!

صحوت على نفسي في شاحنة وجندي مخدش الوجه، ممزق الثياب، قاسي الملامح، يصب على وجهي ماءً. خاطبني وهو يفك بندقيته ويمسح حربته من الدم: "شوف كيف حررناك منهم.. الحمد لله القنبلة ما قتلتك.. هم، بعثناهم إلى جنتهم كلهم دفعة واحدة..".

وعندما أردت ان أتحرك، تجمدت اطرافي إذ شعرت بقطع لحمي المحروق تتساقط وتلتصق بأسمالي.

* * *

ما مضت أشهر حتى قمت بمحاولة فرار ثالثة. قبل ان تتيبس حروقي وتلتئم جروحي ارجعوني إلى الجبهة. منذ أن البسوني بدلتي العسكرية من جديد، هبت فجأة حشود روحي التي كانت غافية في أثناء فترة العلاج. من جديد وبعنف أكثر نطت إلى رأسي فكرة الفرار.

في حزيران 1984، لم تكن قد انتهت بعد السنة الثالثة على الحرب عندما شرعت في الاتصال ببعض الأصدقاء من المهاجرين المصريين. بعد مداوات ومحاولات عديدة عرفوني بشاب قال ان نصفه صعيدي ونصفه تونسي، لهذا فانه كان يمتلك جوازين بإسمين شبه مختلفين ومن دون علم الدولتين. من حسن الحظ ان هذا الشاب كان يشبهني الى حد مدهش، حتى ليبدو انه شقيقي التوأم! بسبب هذا التشابه تعاطف معي ومنحني

ثقتة من اول لقاء. قرر اعارتي الجواز التونسي على امل ان ارجعه له بعد استقرارى في اوربا. وخلال ايام علمني مفاتيح اللهجة التونسية التي لم تختلف كثيرا عن اللهجة العراقية.

كان حلم (اوروبا) يستحيل في أعماقي إلى صرخة تمرد راحت تنشدها حشودي وهي تدق على جدار روحي. كان مساء خميس عندما نزلت في إجازتي من الجبهة. الساعة الخامسة وصلت إلى موعدى مع صديقى المصرى التونسى، وفي الساعة السابعة كان الجواز بحوزتي. الساعة العاشرة كنت في الباص الراحل إلى اسطنبول.

لم يكن يشغلنى ماذا سأفعل هناك. المهم أن أخرج من الجحيم وبعدها لا يهم أين. طيلة ساعات الطريق وحتى أيقظني رجال الأمن في الفجر، عيناى كانتا مغلقتين على آخر أنوار بغداد، وقد انبجست في رأسى صورة مدينة متألئة تتوسطها بحيرة تفرش مياهها بين سلسلتين جبليتين، عرفت بعد سنين انها جنيف! شاء سوء الحظ أن يكتشفوا تشابها بين اسمى في الجواز واسم أحد المطلوبين، فواقفونى. في الليل، قبل ان يستجوبونى ويكتشفوا حقيقة هويتى، تركت لهم الجواز وهربت من النافذة. عدت إلى وحدتى العسكرية دون أن يكتشف أحد محاولتى.

* * *

المحاولة الرابعة كانت في شتاء 1985. هربت مع أحد الأصحاب إلى أعماق الهور، وانضمنا إلى جموع عصاة فارين من الجيش. كان صاحبي هذا مهووساً بممارسة اللذة على خيال نساء أعدائه. ابتداءً عندما كان صبياً على صورة وهمية صنعها لـ(غولدا مائير)، ثم بعدها انتقل إلى (مسز تاتشر) ليجعلها تصرخ كل ليلة بين ذراعيه!

كان يفوقنى بجنونه ولهفته إلى (أوروبا). التجأنا إلى عصاة الأهوار أملا في العثور على طريق خلاص. رحنا نمارس حرباً أخرى لا من أجل الأرض بل من أجل اغتصاب قوتنا اليومى. كنا نتنكر برتب عسكرية كبيرة، ونوقف القوافل لنسلبها بأوامرنا المزيفة. كنا نتنقل مجموعات مجموعات، بعيداً عن أعين الطائرات المروحية التي كانت تقذف برشاشاتها الحارقة على أحراش مأوانا. كنا كحيوانات كاسرة مهددة من جميع الأنحاء بمصير الانقراض الزاحف : عسكر بلادنا من الغرب، وعسكر الجيران من الشرق، ومن الداخل هناك عملاء السلطة من أبناء عمومتنا.

ضربات الطبيعة ونكباتها كانت لنا بالمرصاد: بعوض، ملاريا، ولسعات افاع وعقارب ونهشات خنازير، وما تجلبه لنا السماء بين حين وآخر من قنابل وصواريخ قد أخطأت اهدافها لتسقط على رؤوسنا. وقعت أنا

فريسة لسعات البعوض وانتشرت في دمي جراثيم ملاريا، فكننت في نوبات الحمى أغمض عيني وأشاهد
دواخلي قد لوثها الموت وصارت مثل الأهورا قد امتزجت مياهها ببارود ونفط وجثث عسكر.

صاحبي مات بجاني وهو يواسيني. انحنى على الشاطيء فجائته رصاصة وهي ترن واخترقت الرقبة.
بهدهوء استلقى على ظهره كأنه قد تهيأ كعادته لتخيل صورة زوجة قاتله، وابتسم بألم وهمس بلهجة معتذرة :
- "ماشي الحال.. هذا نصيبي.. " ومات...

عدت منتكساً إلى بغداد بعد أن شتتت الطائرات والخيانات الكثير من جماعاتنا، واستهلكت الملاريا دمي.
عدت، لا لكي اموت بين أهل وأصحاب لا أتذكرهم، بل لأنني لم أكن امتلك خياراً آخر. لكنهم لم يعدموني. لا ادري
لحسن حظي ام لسونه، اعتبروني مشمولاً بعفو صادر عن الفارين. ادخلوني المستشفى وعالجوني حتى شفيت
واعادوني إلى الجبهة.

* * *

المحاولة الخامسة كانت ذات ليلة من ربيع 1986، عندما قررت أن أقطع ذراعي بتفجير قنبلة يدوية في
كفي. تبا لذراعي.. سوف اضحي بها قربانا لخلص بدني وروحي.

بالحقيقة ان الفكرة ما أتتني صدفة، صحيح اني سمعت عنها هنا وهناك، لكن ثمة ذنب شجعني على اتخاذ
قراري. نعم ذنب قد رأيت ذلك المساء يزحف امام خندقنا وهو يأن ويعوي بنشيج اشبه بنشيج البشر. انكسر
قلبي عليه فزحفت خارج الخندق من دون علم اصحابي واقتربت منه. عندما رأني لم يخف ولم يغضب بل راح
يرمقني بألم كأنه يطلب الرحمة. عرفت ان لغما قد انفجر به إذ كانت الدماء تنزف من انحاء جسمه. رغم مشاهد
الموت والجراح التي عايشتها مع رفاقي طيلة سنوات الحرب، الا اني لسبب اجهله حتى الآن، شعرت بتعاطف
مع ذلك الذنب لم اعرفه من قبل! اخترقتني نظراته المحتضرة كأنني ارى فيها نفسي. بدت ملامحه بشرية اكثر
من البشر، قريبة، اليقة، وكأني عايشتها لحقب طويلة مجهولة. من دون تفكير انحنيت عليه واحتضنته ورحت
ابكي. لم انتبه الى الساعات التي مرت، بل صحت على نداءات اصحابي وهم يفتشون عني في البرية. كان
الذنب الجريح قد مات والليل قد خيم.

عدت الى الخندق وفي رأسي فكرة واحدة وحيدة : ان اقطع يدي لكي اهرب. قلت لا يهم الأمر، سوف
اسافر بعدها الى اوربا واطع ذراعا صناعية افضل من ذراعي الاصلية. في آخر الليل أخرجت يدي اليسرى إلى
حافة الخندق ورجوت احد الأصحاب أن يسحب المسمار من القنبلة لأن يدي الأخرى قد شلها الرعب. أتذكر،
رغم انه وافق وسحب المسمار، ارتمى فجأة علي وراح ينحب كطفل، ليثيني عن تفجير القنبلة في اللحظة
الأخيرة.. لكنها انفجرت. ولأنها كانت نصف فاسدة، فهي لم تنهش مني غير إصبع واحد!

ادخلوني المستشفى وعالجوني ثم أرجعوني إلى الجبهة بعد ان اخبروني أنهم يشكون في ادعائي بالحادث. لولا شهادة الأصحاب لأعدموني. أنذروني ان أي تكرار لمحاولتي فإنهم سوف يلبنون رغبتى بأنفسهم بوضعي في مدفع وتفجيري على مواقع العدو.

* * *

محاولتي السادسة تمت رغماً عني. كانت هروباً من الموت أكثر من كونها هرباً إلى الحرية. كانوا قد رموني في جبهة (الفاو) في موقع أرضه من أطيان وقبور جماعية سرية، تجعل الأرض تنز دماً حينما تمر فوقها شاحنة أو دبابة. يوماً بعثني ضابطي إلى الخندق المجاور، وما أن خرجت حتى قصفته الطائرات. ركضت إلى خندق اخر، فطرطني الضابط وأمرني بالعودة، وما أن خرجت منه أيضاً حتى قصفته الطائرات! أربعة خنادق متتالية لا تقصفها الطائرات إلا عندما أتركها؟! سمعتهم يتشاورون بينهم بأني إما نبي وإما جاسوس، فهربت.

عدت إلى بغداد. وعن طريق صديق قديم كان سياسياً وتحول إلى مهرب محترف بعد أن بزغت مواهبه المنسية يوم قبضوا عليه فتنكر لقضيته لقاء ضمان حمايته. تمكنت من عبور الجبال للالتحاق بالعصاة في شمال الوطن. أخبروني في بغداد أنني سأستطيع من هناك التسلل الى تركيا ومنها سأشق طريقي إلى أوروبا. في مثلث الحدود العراقية - التركية - الإيرانية، في أودية محاطة بجبال صخرية تهابها أعتى الجيوش، كان ينتشر آلاف الرجال المسلحين مع عدد أقل من النساء، يقيمون في كهوف وتحت سقوف صخرية لا تفتتها أشد القنابل فتكا. آلاف من الحالمين، أكراد بغالبيتهم ومعهم عرب وسريان وتركمان، مسلمون ومسيحيون وصابئة ويزيديون وملحدون، طلاب وعمال وفلاحون وعسكريون، في طبيعة قاسية من ثلوج وأمراض وقنابل طائرات ومؤامرات خفية.

كنت من قبل في حرب نظامية بين جيشين متجابهين، أما الآن فأني في ساحات حروب بين جيوش سرية وعلنية، قبائل وعوائل ومشايخ ومهربون وتجار، يرتدون اثواب ثورة ويرطنون بمدن فاضلة، ويخوضون حروباً فيما بينهم. بعضهم مع دولة وضد اخرى، وبعضهم ضد هذه ومع تلك، وبالنتيجة فإن الجميع يتعاملون مع الجميع وضد الجميع!

ذات يوم كنت منحدرأ في واد مع مجموعة من الأنصار، مسربلين بأشعة نحاسية غمرت المكان. ثمة شيء ما غامض كان يضيء على المشهد شحوبا غريباً ينبىء بكارثة، وقد ارتسمت على وجوه الجبال ملامح ترقب وحذر. لقد تعمق لدي هذا الشعور عندما لمحت مجموعة غربان سوداء تحوم فوقنا بين اغصان البلوط. لا ادري أية قوة غريبة دفعتني إلى ان اتلكأ في مشيتي ووقفت لأتبول خلف صخرة. فجأة لعل الرصاص في الغابة

وتقطعت الأغصان واختلط نعيق غربان مع صرخات بشرية جريحة. عندما ركضت وقع علي رفيق جريح. سقطت وسقط هو فوقي. كان وجهه فوق وجهي وقد جحظت عيناه في عيني ونزفت دماء من ثقب في جبهته. رغماً عني تسربت قطرات من دمه إلى فمي وامتزج طعمها حاراً حامضاً مع لعابي، فأحسست لحظتها بتقزز كما لو ان آلاف الثعابين قد تسللت إلى احشائي. كنت أصرخ وأنا لا أفكر إلا بشيء واحد : كيف أزيل دم رفيقي من احشائي. لقد شربت دمه وهو يموت!

لم اعد أدرك شيئاً من الوجود. تلاشت لعلعة الرصاص وانفجارات القنابل. رحت اركض واركض وأنا أبصق. بصقت حتى دمي.

* * *

بقيت هانماً بين جبال وغابات أياماً لم احسبها، اقتات على أعشاب وثمار، وأتأشى البشر وقد تمزقت عني ثيابي وصار لوني بلون الأرض. كنت ملتزماً صمتاً مطبقاً لكي أصغي جيداً إلى حوارات صاحبة جارية بين حشود بشر روي. رغم كثرتهم فإني كنت أراهم حشدين متجابهين في جدال يمزج بين خصام وتفاهم، واحد من حكماء وآخر من معتوهين، وجميعهم قد ائلمتهم الأحداث وانهكتهم.

ذات نهار ربيعي عثر علي أحد الرهبان. كنت مستلقياً في غدير، والماء يغطيني حتى أنفي. عيناى مغمضتان وأنا أصغي إلى صخب حكمائي ومجانيني ممتزجاً بخيرير الماء. فتحتهما لأرى مصدر صوت بشري صدح في الوجود. عبر الماء الشفاف، شاهدت وجهاً نورانياً مرسوماً على صفحة السماء!

لم اتحرك، كنت أنظر إلى الوجه وأنا في خدر ولا مبالاة مطلقين. كنت أحس بنفسى في انفصال عن الواقع، كأني في ذاتى طائر غير مرئي أحوم مراقباً حشود حكمائي ومجانيني وهي تضطلع بعملية إدارة بدني على الأرض.

قادني الراهب إلى ديره القريب من مدينة الموصل، وهناك اطعمني وآواني. كنت امضي وقتي بمشاركة الرهبان في تراتيلهم، وحينما اشعر بالملل كنت اصعد الى السطح حيث تنتشر اعشاش طيور اشاركها مناقتها. عرفت ان راهبي ينادونه(عمو توما)، لكنه لم يستطع ان يعرف منى اسمي، فراح يناديني بـ (آدم)! رغم انه كان يتميز ببشرته الحليبية وشعره الفضى، الا انه كان يشبه في شخصيته كثيراً (الشيخ ابو يحيى) الذي التقيته في البادية. ظل راهبي الطيب حتى يوم فراقنا في حيرة أمام نحبيي كلما صدحت في الدير تراتيل الرهبان. والحقيقة أنى لم كن أكثر معرفة منه بذلك!

اتى اليوم الذي أمسكنى فيه العسكر قرب الدير. فشل (عمو توما) في تخليصى. لم تكن بحوزته أية أوراق تثبت هويتى. كبلونى ولم يكلمونى بعد أن عرفوا بخرسى وخبلى. قادونى من موقف إلى آخر ومن

معسكر إلى آخر وهم يعلفون بي بلا سؤال. بعد أيام، أتاني ضابط ذو صوت طفولي غير منسجم مع وجهه المكون من شارب فاحم كث وبضعة ثقوب اقل وضوحاً من النجوم الملتمة على كتفيه. تحسس بعصاه لحمي وهز رأسه إلى (رئيس العرفاء). أدركت أنه أمر بضمي إلى القطيع.

* * *

ذالك اليوم، أعادوني إلى الجبهة بعد ان رموني في الحمام وحلقوا شعري وألبسوني بدلة عسكرية مرقمة ثم حشروني في الشاحنة بين الارزاق. منذ ان وصلت قبل اشهر إلى هذه القاعة المحفورة في الأرض، وأنا يوماً بعد يوم أرقب بحذر انتفاخ بطن تمثال (سيدة القارورة)! كنت في أثناء صمتي وخرسي المخبول، ارقب عيون الجنود لأقرأ فيها ما يعبر عن شكوكهم فيما يخص انتفاخ بطن المرأة. لعلهم كانوا يتحاشون الفضيحة لأنهم كلهم مشتركون فيها مثلي! لا ادري ماذا سيفعلون حينما يأتي اليوم الذي سيصبح فيه من المستحيل إخفاء الأمر، ثم من يعلم أي مولود سيخرج من بطن مجروح بسيف؟

ذات ليلة من شهر شباط 1988، وبعد مرور تسعة أشهر على وجودي معها، كنت احدق في البدر المتوهج من فتحة في الجدار خلف رأس المرأة. كنت أشكو لها حيرتي أمام مصيري المجهول بعد ان فشلت جميع محاولات هربي الست. كنت وحيداً بين آثار اسلاف من الزناة، أخرس، اطرش، فاقداً للذاكرة. أهمس لها بصلوات الرجاء لتعيني على الخلاص من عالمي هذا. لتنقذني إن كانت هي حقاً سيدة وجودي وصانعة حياتي من حلم ارتعاشتها. كيف لي أن امضي العمر وانا لا احمل في دمي غير ذكريات سبعة اعوام من حروب وتيه بين أهوار وبيواد وجبال من أجل فرار من جحيم حاضر نحو عالم سام ومجهول؟

كانت حشود حكمائي ومجانيني تدفع بجسمي نحو التمثال وتشدني إلى أحضان المرأة وكأني أكاد ألتحم بها وأغور في دواخلها. فجأة اهتزت القاعة بانفجارات متتالية امتزجت بأصوات الطائرات وصرخات الجنود. عندما انهار السقف وتعالق من اطراف القاعة صرخات الأصحاب، ميزت بينهم عريفنا (الملاً يوسف). في الوقت الذي أخذت فيه الأحجار فوقى بالإنهيار، كنت أكور نفسي على صدر المرأة، ورحت بالتدريج انزلق في فجوة أحضانها. انهارت صخور بطنها من جرح نازل من العنق حتى أسفل البطن وإنكشف نفق عجيب يمتد من جذعها إلى أعماق الأرض خلال الجدار!

* * *

أجهل حتى الآن كم من زمن قد مر علي وأنا أزحف بين متاهات أنفاق قادتني إلى عوالم وعوالم عشتها خلال آلاف الأعوام. كأني استحلت إلى طاقة من نور، أطوف بين عصور وأوطان وأقوام. مئات المرات إنولدت، ومئات الشخصيات عشتُ ومن ثم مت. أمضيت حُقباً وحُقباً من تاريخ رعشتها، وكانت هي صانعة حيواتي وحافضة نسلي ومديمة تناسخي في تلافيف حلمها. حتى وجدت نفسي أخرج من بين صخور شواطئ بحيرة (جنيف).

ليست معجزة انتقالي وحدها ما يثير عجبي، إنما كذلك ادعاء سيدة الحانة أنني صاحب مخطوطة هذه الحكاية، وأني نسيتهها عندها منذ أيام، وأنها تعرفني من رواد الحانة منذ سبعة أعوام، وأني غريب الأطوار، وأني وأني... ولم أعقل منها كلمة واحدة، لأنني بكل بساطة لم أكن هنا أبداً ولم أعرف هذه المدينة إلا منذ أيام، ولقد أمضيت السنوات السبع السابقة في جبهات الحرب والفرار، بدليل أنني لا أتذكر سواها لأنني عشتها هي وحدها لا غير.

لكي اجنبكم متاعب شكواي وإسهابي، اعرض عليكم الحكاية، كما وجدتها في المخطوطة، لتحكموا أنتم بأنفسكم.